من حليم وأمِّ كلثوم إلى فيروز ومنير.. كيف تناولتِ الأغنية العربية قضيَّة القدس؟

مصطفى عبيد

روائيّ وصحفيّ من مصر

مقدمة

الإبداع ليس مـــادَّة ترفيهٍ لكسر الملل، وإنَّما هو مرآة مُجتمـــع مهمومٍ وموجوعٍ بقضايا مصيريـــة، وهو نافذة بَوْحٍ، وشُرْفة إطلال لإعلان موقف ما، وهو، أيضًا، لوحة تذكارية؛ لتسجيل مشاعر مؤجَّجة، تقاوم القبح.

من هُنـــا لا يُمكن للمبدع الحقيقـــيِّ أن يغيب عن قضايا مجتمعـــه، فنجده ينفعل بها، ويندمج معها، ويتأثَّرُ بأوجاع الناس، ويُعبِّر عنها. لذا كانتِ القضية الفِلَسْطينيّة، ومازالت -بوصْفِها قضيّةَ العرب الأولى، قرابة ثمانيةِ عقود- حاضرةً، وســـاطعة، ومؤثِّرة في مسيرة الإبداع العربيّ بمختلف ألوانه.

وإذا كانتِ الأغنية العربية الحديثة قد نشـــأت، وتطـــوَّرت تطوُّرًا مذهلًا، خلال الربع الثاني من القرن العشرين، فإنَّ تَعاطيها مع قضية فِلَسْطينَ، اتَّخذ مسارًا صعوديًّا مُعبِّرًا عن توجُّهات الشارع العربيّ السياسيّ، خلال مختلف مراحل الصراع العربيّ- الإسرائيليّ.

لقد ركَّزتِ الأغنية العربيّة الحديثة على قضية فِلَسْطينَ، انطلاقًا من كونها قضيةَ اغتصابٍ لحقوق شعب عظيم عاش آلاف السنين على هذه الأرض، وعدوان على سيادته فيها، غيرَ أنّهـا ميَّزت مدينة القدس تحديدًا، واختصَّتْها بأغانٍ ومقاطعَ دالّةٍ بالاسـم والصفة، لِما لها من مكانة دينية عظيمة لدى المسـلمين والمسيحيين العرب، فهي مسرى النبيّ محمد، صلّى الله عليه وسـلَّم، وهي مهد المسيح، وفيها المسجد الأقصى بجلاله عند المسلمين، وكنيسة القيامة برمزيَّتِها الروحية عند المسيحيين.

وبشـكل إجماليٍّ، يُمكن القول: إنّه لم يسطع مبدعٌ عظيم في سماء الغناء العربيّ الحديث دون أن يُغرِّد لِفِلَسْـطينَ، ويتغنّى بالقدس، تلك المدينة المحبوبـة تاريخًا، وذِكْرًا، ومكانة لدى جموع العرب من المحيط إلى الخليج.

وجع النكبة

لقد تزامن مسلسل الهجرة المتواصل إلى فِلَسْطينَ، والَّذي تُنَفِّذُه الجماعات اليهودية، مع تصاعد حدَّة العمليات الإرهابية الصّهيونيّة التي استهدفت العرب العُزَّلَ، واتِّساع مداها إلى أقصى مدى خلال الأربعينيات، لذا فإنَّنا نجد صدىً لذلك المدى في أقدم أغنية تتناول القضية، وهي تلك التي شدّت بها المطربة السوريّة سهام رفقي[1] سنة 1948م، من كلمات المُلحِّن السـوري عبد الغني الشـيخ، وألحانِه [2]، وحملت عنوان «يا فلسـطين جينالك»، وعَبَّرَتْ عن تعاطف العرب في الأقطار كافَّةً مع أشقائهم في فِلَسْطينَ. وغَنّى بعدها الملحِّن السوريّ عبد الغنيّ الشيخ نفسه بصوته «مرحى مرحى. قتلى وجرحى بالملايين.. مرحى مرحى لفلسطين»، حسبما يذكر المؤرِّخ الفنّيّ السوريّ أحمد بوبس[3].

غير أنَّ هذه الأغاني لم تذكرِ القـدس بصفة خاصّة، وهو ما يُرجّح أنَّ أولى الأغاني التي أشارت إلى مدينة السلام، بالصفة دون الاسم، كانت أغنية المطربة اللبنانية نجاح سـلام[4]، حين غنَّتْ وهي طفلة صغـيرة، أولى أغانيها، من كلمات الشـاعر اللبنانيّ بولس سـلامة[5]، وهي قصيدة طويلة تقول في بعض كلماتها: «يا زائرًا مهد عيسى غير

مضطربٍ.. لا تأمن الدرب، صار الدرب آتونا. يا قاصدًا المسجد الأقصى أما لَحَتْ عيناك، في حائط المبكى ثعابينا».

توظيف الفن قوميًّا

ويُمكن القول: إنَّ أولى الأغنيات التي صَدَحَتْ باسْمِ القدس بشكل مباشر، تمَّ إنتاجها عام 1948م، وهي أغنية «أخي جاوز الظالمون المدى» من غناء موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، وتلحينِه[6]، وكتبها الشاعر علي محمود طه[7]، وقالت إحدى مقاطعها: «**أخي إنَّ في القدسٍ أختًا لنا.. يُعِدُّ لها الذابحون المُدى**»، وهي إشارة واضحة إلى استهداف العصابات الصهيونية للنساء في المدينة العظيمة. وتتكرَّر في القصيدة ذاتها إشاراتٌ عديدة حول الرمزية الدينية للمدينة، فهي «**قبلة المشرقين**»، وهي التي يتعانق فيها «يسوع» بما يمثِّله من رمزية مقدَّسة لدى جموع المسيحيين، بـ«أحمد» وهو اسم من أسماء النبي محمد، صلّى الله عليه وسلَّمَ.

ويرى المحلِّل الموسيقي الدكتور أسامة عفيفي أنَّ هذه الأغنية تُعَدُّ بداية واضحةً لكسر فكرة كونِ الغناء موضوعًا للتسلية، أو الترف فقط. وهي تأكيد على أنَّ الفنَّ صار يؤدّي رسالة قومية بالغة الخطورة توحِّد مشاعر العرب في كلِ مكان، وتُشعرهم بأنَّهم على اختلاف أقطارهم شعب واحد، لديه الإحساس نفسُه، والآلام والآمال نفسُها. وفي رأيه فقدِ ارتفعت هذه الأغنية كثيرًا بقيمة الفنِّ الذي بات يتعرَّض للقضايا العربية الكبرى، ويحمل رسالة تشحذ الهِمَمَ، وتُقوّي الأُمم، ولا تقلّ أهمّيّة عن حمل السلاح، وبمثلها أيضًا زاد احترام الفنّان، وحبُّ الناس له.

ويشير أسامة عفيفي إلى أنَّ الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب حقَّقَ، بنهاية الأربعينيات، شهرة واسعة ونجاحات عظيمة؛ بفضل ابتكاراته الفنّيّة، وتجديدِه المستمرِّ للموسيقى العربية، وصار التجديد سِمَةً رئيسة في أغنياته الحديثة. ويقول «لو طالعنا النّصّ قبل سماع اللحن لتوقَّعنا أنْ يأتي لحن القصيدة في قالب النشيد، واللَّحن لم يخلُ تمامًا

من ملامح النشيد، فقد ضمَّت موسيقى المقدّمة ما يشبه المارش في مقطعها الرئيس، ولكن «عبد الوهـــاب» اختار الخطاب العاطفيّ بدلًا من الخطاب الحماسيّ، فجعلها «أنشـــودة» غنائية، ولم تَخْلِ الكلمات القاســـية دون إبداء هذا القدر الكبير من العاطفة، والتي جعلت اللحن يسكن قلوب الناس، ويستمرُّ في إثارة نفس المشاعر لدى الجماهير العربية لعشرات السنين» [8].

طموحات جيل جديد

ولا شكَّ في أن حرب فِلَسْطينَ كانت سببًا واضحًا في شهرة كثيرٍ من المُطربين الجدد الذين ظهروا، نهاية الأربعينيات، ومطلع الخمســـينيات مـــن القرن العشرين، عندما تفاعلوا مع مشـــاعر الجماهـــير العربية مُردِّدين آمالها في تحرير الأراضي الســـليبة، غيرَ أنَّ الغناء لمدينة القدس، بشـــكل واضح ومباشَرٍ، صار قاصرًا على الأغاني الفِلَسْطينيّة التراثية، والأغاني الشـــعبية، فحتّـــى عندما غنَّـــتِ المطربة الصاعدة ســـعاد محمد[9] مونولوجًا في فيلم «فتاة من فلســـطين» إنتاج 1948م، تتحدَّث فيه فتاة فِلَسْـــطينية عن مأســـاتها، بتلحين رياض الســـنباطي[10]، وكلمات بيرم التونسي[11]، فإنَّ المونولوج لم يتعرَّض للمدينة العظيمة بالذكر، وربَّما كان السبب أنَّ القدس الشرقية في ذلك الوقت لم تكن أسيرة، وإنَّما كانت تابعة إداريًّا لإشراف المملكة الأُردنيّة.

صوت القضية

ورغم ذلك، فإنَّ القدس لم تسقط تمامًا من ذاكرة الأغنية العربية في ذلك الوقت، وإنَّما ورد ذكرُها في مَعْرِض دعم إبداعيّ غير مسبوق للقضية الفِلَسْطينية شهدته الخمسينيات، من خلال تحالف فيروز[12]– آل رحباني[13]، مع إذاعة صوت العرب من القاهرة التي كان يديرها إذاعيٌّ قوميٌّ متميِّز هو أحمد سعيد[14].

ووفْقًا لِما رواه منصور الرحباني، فقد تلقّى دعوة من إذاعة صوت العرب بقيادة أحمد سعيد لعمل عدَّة أغانٍ وأناشيد عن فِلَسْـــطينَ، كان من أشهرها «عائدون»، و«سنرجع يومًا»، فضلًا

عن أغانٍ أخرى بأسماء كثيرٍ من المدن الفِلَسْطينيّة مثل: يافا، بيسان، وغيرها[15].

ويُمكن القول: إنَّ أغنية «القدس العتيقة»، والمنتجة سنة 1964م، والتي كتبها ولحَّنَها الأخوان رحباني، كانت بمثابة تأكيد لفكرة أحمد سعيد التي ترى أنَّ فيروز هي أفضل صوت مُعبِّرٍ عن قضية فِلَسْطينَ، بكلِّ ما تحمله من معاني حزنٍ تجاهَ تهجير السكان وتشريدِهم، وطَمْسِ الهُوِيّة. ففيها تمرُّ فيروز عَبْرَ شوارع القدس الحزينة، وهناك يمنحها بعض السّكّان مزهرية، ويُخبرونها أنَّها هدية من أولئك المنتظرين لعودة الديار والأهل. وكما تشرح كلمات الأغنية «**كان في أرض وكان في إيدين.. عم بتعمر تحت الشمس وتحت الريح.. وصار في بيوت وصار في شبابيك.. عم بتزهر صار في ولاد وبإيديهم في كتاب.. وبليل كلّه ليل سال الحقد بقيّة البيوت.. والإيدين السودا خلعت الابواب وصارت البيوت بلا صحاب**». ويرجِّح بعضُهم أنَّ ما رَوَتْه كلمات الأغنية كان حقيقيًّا إذ حدث بالفعل، خلال زيارة فيروز للمدينة العتيقة في ربيع 1964م، مع صحبة فرقتها الموسيقية.

خلود زهرة المدائن

وستتطوَّرُ رؤية فيروز تجاه القدس كثيرًا، فيما بعد نكسة يونيو/ حزيران 1967م، وإعلان إسرائيل الاستيلاء التامّ على القدس الشرقية، إذ ستشدو في العام نفسه بأغنيتها الخالدة «زهرة المدائن»، من كلمات، وألحان آل رحباني.

وتبدو الأغنية أكثرَ الأغاني المَعنيّة بالقدس وصفًا للمدينة العظيمة، وأكثرَها تفصيلًا لِما شهدته منِ اعتداءات، وما بثَّته من مشاعرَ متأجَّجةٍ في نفوس العرب من مسلمين ومسيحيّين؛ سعيًا إلى عودة الحقِّ لأصحابه. ويتنوَّع وصف جمال القدس وأصالتِها، في هذه الأغنية فهي «**بهية المساكن**»، «**مدينة الصلاة**»، «**زهرة المدائن**»، وفيها عاشَ المسيح وأمّه، وواجَها الخوف والخطر، ومنها أُسْرِيَ بالنّبيّ محمد، عليه الصّلاةُ والسلامُ، إلى السماء، لذا فإنَّ «**الغضب آت آت**»، ومهما حدث، فإنَّ «**القدس لنا**»، نحن العرب، شاء مَنْ شاءَ، وأبى مَنْ أبى، لأنَّ السلام لا يمكن أن يتحقَّق إلّا بعودتها.

ولقد صارتِ الأغنية محلَّ استدعاء دائم في العواصم والمدن العربية كافَّةً؛ بكونِها أفضلَ أغنية قدِّمت عن القدس، ورغم أنَّ الموسيقار محمد عبد الوهاب ذكرَ في تعليقه عليها، يوم سمعها للمرَّة الأولى أنَّ لحنَها «لحن عاديٌّ وتقليديٌّ، وأنه لن يعيشَ طويلًا»، إلّا أنَّ احتفاء الجماهير العربية بالأغنية والمطربة، وبآل رحباني في مهرجان أقيم في عام 1967م، وتواصل احتفاء الأجيال العربية بالأغنية من زمن لآخر، دلَّلَ على خطأ تصوُّرِ «عبد الوهاب»، كما يقول منصور الرحباني[16]. والملفت أنَّ مُلَحِّنًا كبيرًا في عصرنا الحاليّ، مثل الموسيقار المصريّ حلمي بكر قدَّم شهادته عن أغنية «زهرة المدائن» بعد ستّين عامًا من تقديمها، في تصريحات خاصّة أدلى بها لصحيفة «النهار» اللبنانية في كانون الأول/ ديسمبر 2017م، قائلًا: «إنَّ فيروز نجحت فيما فَشِلَ فيه جميع المُطربين والمطربات، وهو المحافظة على صدق صوتها، وأنَّ سِرَّ نجاح أغنية زهرة المدائن وخلودِها، هو أنَّ فيروز والرحابنة أعَدّوها بصدق حقيقيٍّ، فرغمَ ظهورِ أكثر من مئة أغنية عن فِلَسْطينَ، فَمازالت «زهرة المدائن» لفيروز هي الأعظم»[17].

مشاركة حليم

ويُمكن القولُ: إنَّ المطرب عبد الحليم حافظ[18]، حاول هو الآخر بكونِه صوتًا شبابيًّا جديدًا، يُعبِّرُ عن مصر الجمهورية، خلال فترة المدِّ القوميِّ في الخمسينيات والستينيات، أنْ يشارك في التغنّي بِفِلَسْطينَ التي تُمثِّل قضية العروبة الأولى، ويعلن معاداته للمشروع الصّهيونيّ؛ ليعكس بوضوح توجُّهات الشارع العربيّ، فيكرّر العهد بعودة فِلَسْطين، وهو يُغنّي لثورة تموز/ يوليو في أغنية «ثورتنا المصرية» سنة 1955م، من كلمات مأمون الشناوي[19]، وألحان رؤوف ذهني[20]، إذ يقول: «**وهترجع عربية... حبيبتنا فلسطين**».

غير أنَّ ذكرَه المباشر لمدينة القدس جاء في قصيدة شهيرة، حقَّقت نجاحًا عظيمًا، غنّاها في لندن عَقِبَ النكسة مباشَرة، بعنوان «المسيح»، من كلمات عبد الرحمن الأبنوديّ[21]، وألحان بليغ حمدي[22]. وهذه الأغنية تحديدًا مثَّلَت خطابًا مباشَرًا موجَّهًا للعالم الأوروبيّ المسيحيّ؛ لتعريفه بأنَّ قضية فِلَسْطينَ، والاستيلاء على القدس، هو عمل إجراميٌّ مخالف

لدعوة المسيح النبيلة للتسامح والسلام. ومن كلماتها « **في القدس في طريق الآلام، وفي الخليل رنَّت تراتيل الكنايس.. في الخلا صبح الوجود إنجيل**» ثمَّ تقول أيضًا: «**تاج الشوك فوق جبينه، وفوق كتفه الصليب.. دلوقت ياقدس ابنك زيّ المسيح غريب غريب.. تاج الشوك فوق جبينه وفوق كتفه الصليب. خانوه. خانوه نفس اليهود.. ابنك يا قدس زي المسيح لازم لازم يعود**».

الاستدعاء الديني

ولم تقتصر فكرة الاستدعاء الدينيّ للقدس على حليم، فكثيرون في منتصف السّتّينيات اتَّخذوا المسار ذاته، وربَّما كان السبب في ذلك قيامَ المتطرِّف اليهوديّ الأُسترالِيّ مايكل دينس روهن في آب/ أغسطس 1966م بإشعال الحريق بشكل متعمَّد في المسجد الأقصى، ما استفزَّ مشاعر المسلمين في مختلف الأقطار العربية والإسلامية[23].

وهكذا غنَّت سعاد محمد أغنية «حبيبة السماء»، كلمات محمود حسن إسماعيل[24]، وألحان رياض السنباطي، ثمَّ غنّى فهد بلان[25] من ألحان محمود الشريف[26] أغنية «المسجد الأقصى الجريح»، وغنّى، أيضًا، للمُلحِّن نفسِه «قدس العرب»، ثمَّ غنّى المطرب ذاته، في فترة لاحقة، أغنية «القدس بتنادي»، من كلمات ظافر الصابونيّ، وألحان عبد الفتاح سكر.

ولعلَّ أشهر أغنيات حرقِ المسجد الأقصى كانت «يا قدس فين الآذان» التي غنّاها محمد قنديل[27] من كلمات عبد الفتاح مصطفى، ألحان عبد العظيم محمد، وإنْ لم تنتشر كما يجب.

والملاحظ أنَّ معظم الأغاني التي تناولت فِلَسْطينَ، فيما بعد النكسة، حرصت على استدعاء اسم القدس كَمُحَفِّز روحيّ للعرب؛ لشحذ الهِمَمِ، وتأجيج الحماس تجاه إسرائيل، وحتّى عندما غنَّت أمّ كلثوم، أغنية «أصبح عندي الآن بندقية»، من كلمات نزار قباني، وألحان محمد عبد الوهاب، فإنَّها ذكرت القدس كأول مدينة فِلَسْطينية عندما نادت على الثوّار في كلِّ المدن الفِلَسْطينية، واحدة تلو الأخرى[28].

وفيما بعدُ ستلتصق كلمة القدس بأيَّةِ أغنية عن فِلَسْطينَ، مثلما هو الحال في أغنية «إلّا فِلَسْطينَ» لـ«سيِّد مكّاوي»[29]، ومن ألحانه وكلمات فؤاد حداد[30]، ثمَّ في أغنيته الأخرى «الأرض بتتكلِّم عربي».

الانتصار للشارع العربي

وإذا كان بعضُهم قد تصوَّرَ أنَّ توقيع مصر لاتِّفاق سلامٍ مع إسرائيل، خلال عهد الرئيس أنور السادات، أَثَّرَ بشكل سلبيٍّ في الإبداع الغنائيّ المُعبِّر عن القضية، فإنَّ العكس تمامًا هو ما حدث، فنجد أنَّ الأغانيَ العديدة التي سُجِّلت وغُنِّيَتْ، في ذلك الوقت، تُعَدُّ دليلًا واضحًا على انفصال المُبدعين الغنائيّين شعراءَ، ومُلحِّنين، ومطربين عن التوجُّه الرسميّ للحكومات، ذلك لأنَّهم يشعرون بانتمائهم للشعب. ومن هنا سجَّلَ المطرب محمد منير[31]، من كلمات مجدي نجيب[32]، وألحان هاني شنودة[33] في سنة 1976م رائعتَه «أموت لو نسيت القدس»؛ ليؤكِّدَ أنَّ الناس في الأقطار العربية لا يُمكن أنْ يَنْسَوا قضية فِلَسْطينَ مهما حدث. ولم تُذَعِ الأغنية، وقتها، بسبب اعتراض الرقابة الرسمية في مصر، لكن المطرب الصاعد احتفظ بها، وأعاد طرحها سنة 1985م، عندما طَبَّقت شهرته الأنحاء، وصار نجمًا يُشار إليه بالبَنان.

وفي التسعينيّات، ومَعَ سطوع موجةِ ما يُعرف بالأغنية الشبابية، في الأوساط العربية، طرحتِ الفنّانة لطيفة[34] في ألبومها أغنية «الإنسان»، من كلمات نزار قباني، والتي تقول كلماتها: «**يا قُدس يا مدينة الأحزان.. مَن ينقذ الإنسان؟**»

وفي الفترة نفسِها، تقريبًا، قدَّمتِ المطربة «إيمان الطوخي»[35] أغنية رائعة من كلمات عبدالسلام أمين[36]، ولَحْن عمار الشريعي[37]، ويقول مطلعُها: «**يا قدس يا خضرا يا مريم العذرا.. مين للحمى والدين.. يا صورة الإسراء: جرحك في قلبي أليم.**»

وعلى النهج ذاتِه سارَ إيمان البحر درويش[38] مقدِّمًا عدَّة أغانٍ عن القدس، كان أبرزها «أدِّن يا بلال» و« الجرح الأليم». كما غنَّى المطرب على الحجّار[39]، أيضًا، مجموعة كبيرة

من الأغنيات لِفِلَسْطينَ، منها «هز هلالك يا صلاح الدين»، «عم بطاطا»، كلمات سيد حجاب[40]، ألحان فاروق الشرنوبي[41].

تخليد الانتفاضة

وفي عام «2000م»، انطلقتِ انتفاضة الأقصى، وتوالتِ الأغاني العربية لكثيرٍ من المُطربين؛ للتعبير عن الحدث العظيم، وطرح قضية عودة القدس؛ بصِفتِها أساسَ القضية الفِلَسْطينية، فقدَّم مجموعة من الفنّانين المِصْريّين أوبريت غنائيّ متميّز، كتب كلماتِه مدحت العدل، ولحَّنه رياض الهمشريّ، ووزَّعه حميد الشاعري بعنوان: «القدس هترجع لنا»، شارك فيه 28 فنّانًا مصريًّا من بينهم مُطربون مشاهير مثل أنوشكا، مدحت صالح، خالد عجاج، وحكيم، وبإخراج طارق العريان[42].

وغنَّت آمال ماهر[43] قصيدة «عربية يا أرض فِلَسْطين»، كلمات عبدالسلام أمين، وألحان عمّار الشريعي، كما قدَّمت رائعتها» أختي وفاء»، كلمات عمر بطيشة[44]، وألحان عمّار الشريعي، عن الشهيدة «وفاء إدريس»، وهي أوَّل فتاة فجَّرت نفسَها في انتفاضة الأقصى.

وبصوت شَجيٍّ جميل غنّى محمد فؤاد[45] «الأقصى نادى»، كلمات محمد حوار، ألحان مدحت العدل. وقدَّم هاني شاكر[46] أغنية «أبواب القدس»، وقدَّمت «أصالة»[47] أغنية «أولى القبلتين» بألحان الفنّان الليبيّ علي الكيلاني وكلماتِه[48]، وشَدا وليد توفيق[49] بأغاني «صوت الحجر»، و«الناصرة»، و«كبار الثوّار»، وغنّى عمرو دياب[50] «القدس أرضنا»، وقدَّمَ تامر حسني[51] «ترابك يا فلسطين»، وغنَّت نوال الزغبي[52] «يا قدس كم أتوق إلى الصلاة»، وغنّى عاصي الحلانيّ[53] «صامدون»، وغنّى كاظم الساهر «يا قدس»[54]، وغنّى عبد الله الرويشد[55] «القدس لنا»، فضلًا عن «صرخة القدس» للمطرب عبادي الجوهر[56]، وأوبريت «إلا القدس» بمشاركة عبادي الجوهر، محمد عبده، عبد الله رشاد، رابح صقر، وطلال سلامة، وبألحان محمد شفيق. وقدم المطرب

السعودي عبد الله رشـــاد[57] عدَّة أغانٍ أخرى عن القدس، كما قدَّم الفنّان المغربيّ عبد الوهاب الدوكالي[58] ثلاث أغنيات عن القدس، من ألحانه، هي «فلسطين» من كلمات أحمد العلج، و«في القدس لازم نصلي»، و«محراب القدس»، من كلمات حسن المفتي.

ومـــع اختيار القدس عاصمـــةً للثقافة العربية عام 2009م، قُدِّمـــت دفعةٌ جديدة من الأغنيات التي تُمجِّدُ القدس، وتحتفي بِهُوِيَّتِها العربية، فغنّى هاني شاكر من ألحانه، وكلمات الشاعر الفِلَسْطينيّ رامي اليوسف، أغنية «أنا مصريّ ودمي فِلَسْطينيّ»، والتي يقول فيها: «**أنا مصري ودمي فلسطيني.. والأقصى حياتي ونور عيني**».

وغنّى المطرب الفِلَسْطينيّ محمد عساف[59] أغنية وطنية داعمةً للانتفاضة الفِلَسْطينية الثالثة بعنوان «انتفاضة القدس»، من كلمات الشاعر جمال الدريميلي، ألحان وائل يازجي، توزيع سعد هنيّة.

وتوالتِ الأغاني الفرديّة والجماعية عن فِلَسْـــطينَ، انطلاقًا مـــن رمزية مدينة القدس، كمدينة أســـيرة، تتطلّع آمال العرب جميعها لعودتها إلى حِضن الأُمّة، نظرًا لمكانتها الدينية بالنسبة للمســـلمين والمســـيحيّين العرب، وكذلك لأنَّها قضية حَقٍّ وعدلٍ إنسانيّ، حيث تعرَّض أهلها للتهجير، والتشريد، والاضطهاد.

الخلاصة

ونستخلص من الرصد السابق عدَّةَ ملحوظاتٍ بشـــأن تناول الأغنية العربية الحديثة لقضية القدس، منذ النكبة حتّى الوقت الراهن (الألفية الثالثة)، أوّلها أنَّ الأغنية بكونِها فنًّا إبداعيًّا نافذًا ومنتشرًا، وقادرًا على الوصول إلى مختلف الفئات، كانت، ومازالت، وســـيلةً فعّالة للتعبير عن القضية، وأســـهمتْ في تشـــكيل وعي الأجيال الحديثة، في المجتمعات العربية، بما جرى تاريخيًّا للوصول للحظة الراهنة.

ثاني الملحوظات، هي أنَّ مدينة القدس، كمدينة لها رمزية دينية للمسلمين والمسيحيّين، بَدَتْ كَرُكْنٍ رئيسٍ من أركان القضية الفِلَسْـــطينية، فلا تكاد تخلو أغنية بعد النكســـة منِ

استحضار المدينة العظيمة صفةً أو لفظًا، ومِنْ ثَمَّ، فإنّه لا يُمكن النظر لأيّ تسويات تخصُّ إنهاء الصراع العربيّ- الإسرائيليّ دون إعلان القدس الشرقية عاصمةً للدولة الفِلَسْطينية الجديدة.

ثالث الملحوظات، هي أنَّ تفاعل الجمهور مع الأغاني ارتبط بالكلمات أكثرَ من ارتباطه باللحن الموسيقيّ، أو حتّى شهرة المطرب المؤدّي، ومكانتِه، وهذا يفسر أنَّ أغنية فيروز «زهرة المدائن» تفوَّقت بقوّة على أغاني مطربين أكثرَ انتشارًا، مثل أم كلثوم، أو محمد عبد الوهاب، والسبب أنَّ كلماتها استعرَضَتِ المأساة بوصف قويٍّ قبل أنْ تنطلق إلى الخلاصة النهائية، وهي استمرار الغضب لحين عودة القدس.

رابع الملحوظات، هي أنَّ الأغانيَ الأكثرَ تأثيرًا، هي التي اتَّسمت بوَحْدَةِ التعبير عن المشاعر الدينية للمسلمين والمسيحيّين معًا، بينما لم تُذَعْ وتُنْتَشَرْ تلك التي انطلقت من مسارات تخصُّ دينٍ واحد، مثل أغنية «المسيح» لحليم، وأغنية «أذِّن يا بلال» لإيمان البحر درويش.

الملحوظة الخامسةُ، هي أنَّ الأغانيَ التي قدَّمها مُطربون متحقِّقون في الأغاني العاطفية، لم تُحقِّق نجاحًا مُدَوِّيًا كما كان منتظرًا لارتباط صورِهم الذهنية لدى الجمهور بالغناء للحبِّ والفِراق، وهو ما لا يلائم عُمق القضية وجِدِّيَّتَها، وهكذا، فإنَّنا نلحظُ أنَّ أغانيَ بعضِ مشاهير الغناء، مثل عمرو دياب، وتامر حسني، ونوال الزغبي لم تصمد في البقاء والتأثير، ولم تنجح مثلما نجحت أغانيهم العاطفية.

ملحوظة أخيرةٌ، هي أنَّ مفرداتِ الأغاني، وموسيقاها، لم تَحُزِ التطوُّرَ المفترض، فكرّرت كلمات بعينها مثل «الأقصى»، «شهيد»، «مسيح»، واقتصرت الألحان والإيقاعات المستخدَمة على نمط تقليديٍّ لموسيقى أقربَ للمارْشِ العسكريّ، وهو ما يعني أنَّ هناك فرصةً جيدة لتطوير أنماط وأطروحات جديدة، وتجريبِها، تتماهى وَتصاعد العدوان الإسرائيليّ على مدينة القدس، ومحاولات طَمْسِ هُوِيَّتِها، وتُجابِهُ خطاب اليمين المتطرِّف الساعي إلى تصفية الوجود العربيّ تمامًا في مدينة السلام.

هوامش

1 – سـهام رفقي: مطربة، وممثِّلة سـورية، وُلدت في 1922م، مَثَّلَتْ في عدّة أفلام، وعُرفت بالمطربة البدوية، واعتزلـت مبكِّرًا بعد زواجهـا. وتُوفِّيت في 2007م. (انظر: مدونـة الدكتور عدنان الظاهر: سهام رفقي).

2 – عبد الغني الشـيخ: مُلحِّن ومنولوجسـت سـوريّ من مواليد 1905م. قـام بتلحين كثيرٍ من الأغاني، والمونولوجات، والأناشـيد العربية في سـوريا، ولبنان، ومصر، والعراق، وتوفّي سنة 1970م. (موقع أوتار أونلاين).

3 – أحمد بوبس – عبد الغني الشيخ. مقال بأوتار أونلاين.

4 – نجاح سـلام: مطربة وممثِّلة لبنانية، مواليد بيروت في مارس 1931م، غنَّتْ في مصر، والأُردنِّ، ولبنان، والعراق أغانيَ وطنية، ودينية، وشاركت في عشرات الأفلام.

5 – بولس سلامة: شاعر وكاتب لبنانيّ (1902 – 1979)

6 – محمد عبد الوهاب: موسـيقار الأجيال، وواحد من أهمِّ الموسـيقيّين العـرب، وُلد في القاهرة 1898م، وله فضل كبير في تطوير الموسـيقى العربية، ولَحَّنَ مئات الألحان لكبار مُطربي العرب، ورحل في 1991م.

7 – علي محمود طه: شاعر مصري (1901 – 1949).

8 – الدكتور أسـامة عفيفي – دراسة لتحليل أغنية «أخي جاوز الظالمون المدى» موقع كلاسيكيات الموسيقى العربية.

9 – سـعاد محمد: مطربة مصرية ولدت ببيروت في شـباط/ فبرايـر 1926. وغنت في مصر ولبنان وسوريا وتوفيت في تموز/ يوليو 2011.

10 – رياض السنباطي: ملحن مصري (1906 – 1981).

11 – بيرم التونسي: شاعر مصري من أصل تونسي (1893 – 1961).

12 – فـيروز: نهاد وديع حـداد. مطربة لبنانية ولدت في بيروت 21 تشريـن الثاني/ نوفمبر 1935، حققت نجاحًا جماهيريًّا واسعًا في كل الأقطار العربية وحازت على أوسمة وجوائز عديدة.

13 – الأخـوان رحباني: هو اسـمٌ يختصر اثنين من الإخوة، وهما عـاصي رحباني (1923 – 1986) ومنصور رحباني (1925 – 2009م)، واللذان يُعَدّانِ من عُظماء الموسيقى العربية والعالمية، إضافةً إلى كونهما شاعِرَيْنِ من الطراز الفريد.

14 – أحمد سعيد: مذيع مصري ترأس إذاعة صوت العرب. (1925 – 2018).

15 – من لقاء منصور الرحباني مع برنامج الليل المفتوح – تلفزيون المستقبل 1995.

16 – من حكايات منصور الرحباني – الحياة اللندنية 27 كانون الأول/ ديسمبر 1993.

17 – حلمي بكر في حوار مع النهار اللبنانية. 8 كانون الأول/ ديسمبر 2017.

18 – عبد الحليم حافظ: مطرب مِصْريّ شـــهير. ولد في إحدى قرى محافظة الشرقية ســـنة 1929م، ودرس في معهد الموســـيقى، ولمع في ظلِّ ثورة تمـــوز/ يوليو 1952م، وقدَّم عـــددًا من الأفلام السينمائية الناجحة، وتوفّي في آذار/ مارس سنة 1977م.

19 – مأمون الشناوي: شاعر مِصْريّ (1914 – 1994).

20 – رؤوف ذهني: ملحِّن مصري (1924 – 1985).

21 – عبد الرحمن الأبنودي: شاعر مِصريّ (1938 – 2015).

22 – بليغ حمدي: ملحن مصري (1931 – 1993).

23 – في الثامن والعشرين من آب عام 1969م، قامت أربعٌ وعشرون دولة مســـلمة بتقديم شكوى إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتَّحدة ضدَّ محاولة إحراق المســـجد الأقصى. بعد أنْ تبنّى متطرِّف صهيونيّ من أســـتراليا الحريق، ووفقًا لمصادر إخبارية إسرائيلية، فإنَّ المشـــتبه فيه، وهو مايكل دينس روهان صديق لإسرائيل، أحضرته الوكالة اليهودية كي يعمل للتخريب.

24 – محمود حسن إسماعيل: شاعر مصري (1910 – 1977).

25 – فهد بلان: مطرب سوري شهير (1933 – 1997).

26 – محمود الشريف: ملحن مصري، تزوج لفترة من أم كلثوم. (1912 – 1990).

27 – محمد قنديل: مطرب مصري (1929 – 2004).

28 – غنّت أمّ كلثوم سيدة الغناء العربي سنة 1969 أغنية «أصبح عندي الآن بندقية»، وهي أول لقاء لها مع الشاعر الكبير نزار قباني.

وأمّ كلثوم هي سيدة الغناء العربي، اســـمها الحقيقيّ فاطمة بنت إبراهيم البلتاجي، وهي من مواليد محافظـــة الدقهلية في مصر في كانون الأول/ ديســـمبر 1898م، وتُعَدُّ أعظمَ مطربة عربية، جابت الأقطار العربية، وأبهرتِ الجمهور العربي بروائعها الغنائية، وحازت أوســـمة، وجوائز عظيمة، وتمَّ عمل عشرات الكتب، ومسلسل دراميّ عن سيرتها، ورحلت في شباط/ فبراير 1975.

أمّا نزار قباني فهو شـــاعر ســـوريّ، ولد في دمشق في آذار/ مارس ســـنة 1923م، وعمل في المجال الدبلومـــاسيّ، قبل أن يطرح ديوانه الأوّل «قالت لي الســـمراء»، وعمـــره اثنان وعشرون عامًا، الذي عُدَّ علامةً فارقة في الشعر الرومانسيّ العربي. وحازت قصائده السياسية إعجاب الجماهير، ورحل في نيسان/ أبريل 1998.

29 – سيد مكاوي: ملحِّن ومطرب مصري (1928 – 1997).

30 – فؤاد حداد: شاعر مصري (1927 – 1985).

31 – محمد منير: مطرب مصري معاصر من مواليد تشرين الأول/ أكتوبر 1954.

32 – مجدي نجيب: شاعر غنائي مصري من مواليد 1936.

33 – هاني شنودة: ملحِّن مصري معاصر مواليد 1943.

34 – لطيفة: مطربة تونسية معاصرة مواليد 1961.

35 – إيمان الطوخي: ممثلة ومغنية مصرية معاصرة مواليد 1958.

36 – عبد السلام أمين: شاعر غنائي من مصر (1936 – 2001).

37 – عمار الشريعي: ملحن مصري (1948 – 2012).

38 – إيمان البحر درويش: مطرب مصري معاصر من مواليد 1955.

39 – علي الحجار: مطرب مصري معاصر من مواليد 1954.

40 – سيد حجاب: شاعر غنائي من مصر (1940 – 2017).

41 – فاروق الشرنوبي: ملحِّن مصريّ معاصر من مواليد 1951.

42 – كان حادث استشهاد الطفل الفلسطينيّ محمد الدرة، هو المحرِّكَ الأكبر لإنتاج أوبريت القدس هترجع لنا، والذي شـــارك فيه إلى جانب المطربين المشاهير، عددٌ من نجوم التمثيل، مثل محمود ياسين، يسرا، فاروق الفيشاوي، آثار الحكيم، وحنان ترك.

43 – آمال ماهر: مطربة مصرية معاصرة مواليد 1985.

44 – عمر بطيشة: شاعر غنائي من مصر مواليد آذار/ مارس 1943.

45 – محمد فؤاد: مطرب مصري مواليد 1961.

46 – هاني شاكر: مطرب مصري مواليد 1952.

47 – أصالة: مطربة سورية مواليد 1969.

48 – محمد علي الكيلاني: شاعر وملحن ليبي من مواليد 1955.

49 – وليد توفيق: مطرب لبناني من مواليد 1957.

50 – عمرو دياب: مطرب مصري مواليد 1961.

51 – تامر حسني: مطرب مصريّ مواليد 1977.

52 – نوال الزغبي: مغنية لبنانية مواليد 1971.

53 – عاصي الحلاني: مطرب لبناني مواليد 1970.

54 – كاظم الساهر: مطرب عراقيّ مواليد 1957.

55 – عبد الله الرويشد: مطرب كويتيّ مواليد 1961.

56 – عبادي الجوهر: مطرب وموسيقار سعودي مواليد 1953.

57 – عبد الله رشاد: مطرب سعودي مواليد 1965.

58 – عبد الوهاب الدوكالي: مغني وملحِّن مغربي مواليد 1941.

59 – محمد عساف: مطرب فلسطيني من مواليد 1989.